مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ تيموثاوس ٣:١٠-١٥)

يا ولدي تيموثاوسَ إنَّك قد استَقريتَ تعليمي وسيرتي وقَصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في إنطاكية وإيقونية ولِستَرة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتَملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعِها* وجميعُ الذينَ يريدونَ أن يعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطهَدون* أمَّا الأشرارُ والمغُوونَ من الناسِ فيزدادونَ شرًّا مُضِلّينَ ومَضَلّين* فاستمرَّ أنتَ على ما تعلَّمتَهُ وأيقنتَ به عالِماً مِمَّن تعلَّمت* وأنَّك منذُ الطفولِيَّةِ تعرفُ الكُتُبَ المُقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّرَكَ حكيماً للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

أحد الفرّيسي والعشّار

ابتداءً من هذا الأحد ندخل زمن التريودي (الفترة التي تمتد من أحد الفرّيسي والعشار حتى سبت النور)، وتهيّئنا الكنيسة المقدّسة في الآحاد الأربعة الأولى منه للدخول في الصوم الكبير الذي نهيّئُ أنفسنا فيه للوصول إلى يوم القيامة المجيدة، قيامة ربّنا يسوع المسيح من بين الأموات. وفي هذا الأحد يُقرأ على مسامعنا فصلٌ من بشارة القديس لوقا الذي ينقلُ لنا على لسان الربّ يسوع مَثَل الفريسي والعشار.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الإنجيل كُتب ليُقرأ في الجماعة على مسامع المؤمنين. هذا يعني أنّ الإنجيلي عندما يكتب لنا مَثَلاً أو تعليماً أو حادثة معيّنة من حياة الرب يسوع فهو يبغي من ذلك تعليمنا حتى نتّبع خطى الربّ يسوع فنحفظ وصاياه ونعمل بها انطلاقاً مِمّا يُتلى على مسامعنا. وفي هذا المَثَل، مَثَل الفرّيسي والعشار، لا يريد الإنجيلي لوقا أن نحتقر الفريسيين أو ندينهم، بل أن لا نقع في ما قد وقعوا فيه، ولا يريدنا أن نشفق على العشّار، بل أن نقتفي خطاه في التوبة والرجوع إلى الرب.

الموضوع الأساسي في هذا المَثَل هو موضوع البرّ، ويظهر هذا من الآية التي تسبق المَثَل: «وقال لقومٍ واثِقينَ بأنفُسِهم أنَّهم أبرارٌ ويحتقِرون الآخرينَ» (لو ١٨: ٩)، ومن الآية الأخيرة من المَثَل: «أقولُ لكم إنَّ هذا نَزَلَ إلى بيتِهِ مُبرَّراً دون ذاكَ» (١٨:١٤). البار في الكتاب المقدّس هو الذي يخرج بريئاً بعد محاكمته. فالبرّ مرتبط بالقضاء.

العدد ٢٠٠٩/٦
الأحد ٨ شباط
أحد الفريسي والعشار
تذكار القديس المعظم في الشهداء ثاودوروس (وهبة الله) قائد الجيش والقديس زخريا النبي
اللحن الأول
إنجيل السَحَر الأول

في المحاكم تُلقى التهمة على المتّهم ولكن تبقى الكلمة الفاصلة للقاضي الذي يقرّر مَن هو البريء ومَن هو المجرم. فالذي يتّكل على حكمه الذاتي دون انتظار حكم القاضي النهائي يهين القاضي معتبراً أن حكمه باطلٌ مسبقاً.

الله في الكتاب المقدّس هو القاضي الوحيد العادل، وهو الذي يقضي ويحكم في مَن هو بار ومَن هو خاطئ، وحكمه هو الوحيد الذي له صفة الشرعية والإلزام. أمّا في مَثَل الفرّيسي والعشار فإنّنا نجد أنّ الفرّيسي لم ينتظر حكم الله، بل

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠-١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانان صعِدا إلى الهيكلِ ليُصلّيا أحدُهما فرّيسيٌّ والآخرُ عشّارٌ* فكان الفريسيُّ واقفاً يصلّي في نفسِه هكذا أللّهمَّ إنّي أشكرُكَ لأنّي لستُ كسائرِ الناسِ الخَطَفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثلَ هذا العشّار* فإنّي أصوم في الأسبوعِ مرّتين وأُعشّرُ كلَّ ما هو لي* أمّا العشارُ فوقفَ عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفعَ عينيهِ إلى السماءِ بل كان يقرَعُ صدرَهُ قائلاً أللّهمَّ ارحمني أنا الخاطئَ* أقول لكم إنَّ هذا نزَلَ إلى بيتِهِ مُبرَّراً دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفعَ نفسَهُ اتَّضع ومَن وَضعَ نفسَهُ ارتفعَ.

تأمل

جذر كلّ خطيئةٍ ومصدرها وأمها هو الكبرياء الذي بسببه فَقَد المخلوق الأول حياة الفردوس المغبوطة، وبسببه أيضاً فَقَدَ الشيطان الذي خدعه استهان به، وجلس على كرسي القضاء وأصدر حكمه على نفسه بأنّه بارٌ من خلال حكمه على الآخرين: «أنا أشكُرُكَ أنّي لستُ مثلَ باقي الناسِ الخاطِفينَ الظالمينَ الزُّناةِ ولا مِثلَ هذا العشّار» (لو ١٨: ١١). وبفعله هذا وقع الفرّيسي في أكبر خطيئة، إذ أزاح الله عن كرسيّه وجلس مكانه قاضياً، وهذا التصرّف هو قمّة التكبّر بحسب الأنبياء، لذلك سيُحكم عليه أنّه مذنب، أي غير بارّ، وسيوضع من عليائه التي وضع نفسه فيها: «تُوضَعُ عينا تشامُخِ الإنسانِ وتُخفَضُ رِفعَةُ الناسِ ويسمو الربُّ وحدَهُ في ذلك اليومِ... فيُخفَضُ تشامُخُ الإنسانِ وتُوضَعُ رَفْعَةُ الناسِ ويسمو الربُّ وحدَهُ في ذلك اليوم» (أشعياء ٢: ١١، ١٧).

أمّا العشّار، والذي هو في عيون الناس مجرم وسارق لأنّه يسلب الناس أموالهم وممتلكاتهم، فقد وضع نفسه في يدي الله منتظراً حكمه، والله لكونه رحيماً ومحبًّا للبشر سامحه وحكم عليه بالبراءة، حكم عليه بأنه بارّ. وهكذا رفعه إليه، بعد أن وضع العشّار نفسه في حالة المحكوم عليه: «الله ارحمني أنا الخاطئ» (١٨: ١٣).

لقد بنى الفرّيسي حكمه على الصوم والتعشير، وهذه الأمور تطلبها الشريعة، ولكنّ الله بحسب الكتاب المقدس يحكم بناء على محبّة الإنسان لله خالقه ولقريبه، هذه المحبّة التي تختصر كل الأنبياء والناموس: «تُحِبُّ الربَّ إلهَكَ مِن كُلِّ قلبِكَ ومِن كُلِّ نفسِكَ ومِن كُلِّ فِكرِك. هذه هي الوصيَّةُ الأولى والعُظمى، والثانِيةُ مِثلُها، تُحِبُّ قريبَكَ كنفسِكَ. بهاتين الوصيَّتين يتعلَّقُ الناموسُ كلُّهُ والأنبياءُ» (متى ٢٢: ٣٧-٤٠).

تدعونا الكنيسة إذاً من خلال هذا المَثَل أن نضع أنفسنا في يدي الله كما فعل العشار، وأن لا نبرّر أنفسنا وأن لا نحكم على الآخرين: «لا تدينوا لكي لا تُدانوا» (متى ٧:١). كما إنّه إذا اعتبرنا أنفسنا أبراراً صالحين لأنّنا نصوم، حاكمين على أنفسنا أنّنا أبرارٌ، وإن حكمنا على الآخرين بأنّهم خطأة، سوف نُصدم يوم القيامة عندما سيتلو القارئ على مسامعنا عظة القديس يوحنا الذهبي الفم الذي سوف يدعو الجميع، من صام ومَن لم يصم، مَن أمسك ومَن توانى، إلى الإشتراك في المائدة الفصحيّة. المشكلة الأساسيّة هي أنّ الإنسان معرّض للنظر إلى نفسه، معتبراً نفسه مركز الكون، فيقع في التكبّر. هذه هي حال الفرّيسي في هذا المَثَل، وعلينا أن نتجنّب الوقوع في محبّتنا لذاتنا. أمّا الحلّ فيكمن في النظر إلى الله على الدوام: «لقد كنت أبصر الرب أمامي في كلّ حين» كما يقول كاتب المزامير. لأنّه هو حياتنا، وبدونه لا نستطيع شيئاً، حتى إنّنا لا نعلم ما نصلّي لأجله كما ينبغي بدون معونة روحه القدوس (رو ٨: ٢٦). وعندما ننظر إليه ندرك مدى عمق محبّته لنا، هو الذي أحبّنا حتى الموت، وندرك مدى بُعدنا عنه لأنّنا لا نستطيع أن نحبّ بالمقدار نفسه.

الله يعرف مدى ضعفنا ومدى محبّتنا لأنفسنا، ولكنّه يعرف كيف يحشرنا، فقد طلب منّا طلباً لا يمكننا التملّص منه، وهو أن نحب قريبَنا كنفسنا. فإذ كنّا قادرين على المحبّة، محبّة أنفسنا، يمكننا

الرُتبة الملائكية السماوية.

لا شيء يُبعد عن محبة الله للبشر، ولا شيء يُسلّم لنار الجحيم سوى هوى الكبرياء والغرور المتغطرس، إذ عندما يوجد هذا الهوى فينا نكون مدنّسين، حتى لو كانت لدينا فضائل كثيرة كالنقاوة، الصوم، الرحمة أو الصلاة، لأنه كما يقول الكتاب المقدس: «مكرهة الرب كل متشامخ القلب» (أم ١٦: ٥).

لا تلوّث الإنسان الخطايا الجسدية والزنى والفجور وأخرى مثلها فقط، بل الكبرياء أيضاً، وبشكل أخصّ، لأنّ كلّ نوعٍ من الفجور هو خطيئة مميتة طبعاً، وسببها الرغبة، على عكس الكبرياء الذي لا تستطيع أن تجد أيّ سببٍ أو حجّةٍ تبرّره مهما كانت واهية. إذاً، فإنّ الكبرياء ليس سوى انحراف النفس ومرض خَطِر يتولّد من الحماقة؛ نعم، الإنسان الأكثر حماقةً في العالم هو الإنسان المتكبّر.

إنّ المجد الدنيوي والبريق العالمي فانيان، وهما لا يختلفان في شيء عن المشاهد التمثيلية التي تنتهي في ساعاتٍ قليلة

أن نحب الآخرين، وهو يعين ضعفنا.

فإذ نحن مقبلون على الصوم تدعونا الكنيسة من خلال هذا المَثَل أن لا نتشامخ كالفرّيسي، وأن لا ننظر إلى أنفسنا أنّنا نصوم ونعشّر أموالنا (أي نقطع العشر لنوزعه على الفقراء)، بل أن ننظر إلى الرب وإلى إخوتنا وإلى الذين يعيشون بقربنا (وهذا هو مفهوم القريب في الكتاب المقدّس) ونحبّهم كما نحبّ أنفسنا، ونطلب الرحمة من الله الذي يسامحنا على خطايانا ويرفعنا إليه ويجعلنا أهلاً للإشتراك في عشائه السرّي يوم القيامة المقدّسة.

رسالة يعقوب: القَسَم

بعد حثّه المسيحيين على الثبات في الإيمان والصبر في المحن بانتظار المجيء الثاني لربنا يسوع المسيح الديان العادل، ينتقل الرسول يعقوب إلى أعطاء بعض الوصايا العملية التي يجب على أتباع المسيح العمل بها بانتظار هذا المجيء. وأولى هذه الوصايا هي الإمتناع عن القَسَم أو الحلفان: «ولكن قبل كُلِّ شيءٍ يا إخوتي لا تحلفوا لا بالسماءِ ولا بالأرضِ ولا بِقَسَمٍ آخرَ، بل لتكن نَعَمُكم نعم ولاَكُم لا لِئَلاَّ تَقَعوا تحت دينونة» (يع ٥:١٢).

القَسَم معناه أن نُشهد الله على تعهد معيَّن أو عمل معيَّن أو قول تافه وغير مهم لنبيّن للجماعة أننا نقول الصدق والحقيقة. والقَسَم عادة قديمة لدى كل الشعوب حيث يتم إشهاد الله (لدى العبرانيين) أو الآلهة الأخرى (لدى الوثنيين) لإثبات صدقية وجدّية ما يتفوه به الإنسان وما يقوم به. ولكن بعد إعطاء الله الوصايا العَشر لموسى، ومِن بينها الوصية الثانية: «لا تنطِقْ باسمِ الربِّ إلهِكَ باطِلاً لأنَّ الربَّ لا يُبرِئُ مَن نَطَقَ باسمهِ باطِلاً» (خر ٢٠: ٧)، صار الشعب يتجنب لفظ اسم الله واستبدلوا اسمه العلي في القَسَم بألفاظ أخرى: «السماء والأرض والهيكل». لاحقاً أُدخِلت بعض الفذلكات الأخرى، مثل ذهب الهيكل والقربان، وكلها بهدف تمرير المصالح الخاصة. حتى إننا نسمع الرب يسوع يوبخ الكتبة والفريسيين وينعتهم بالقادة العميان لأنهم يقولون «مَن حَلَفَ بالهيكلِ فليسَ بشيءٍ. ولكن مَن حَلَفَ بذَهَبِ الهيكلِ يلتزِمُ. أيُّها الجُهَّالُ والعُميانُ أيُّما أعظَمُ أَلذَّهَبُ أم الهيكَلُ الذي يُقدِّسُ الذَّهَبَ. ومَن حَلَفَ بالمذْبَحِ فليس بشيءٍ ولكن مَن حَلَفَ بالقُربانِ الذي عليه يلتزِمُ. أيُّها الجُهَّالُ والعُميانُ أيُّما أعظَمُ القربانُ أم المذبحُ الذي يُقدِّسُ القربانَ. فإنَّ مَن حَلَفَ بالمذبَحِ فقد حَلَفَ به وبكلِّ ما عليه. ومَن حلفَ بالهيكلِ فقد حَلَفَ به وبالساكِنِ فيه. ومَن حَلَفَ بالسماءِ فقد حَلَفَ بعَرشِ اللهِ وبالجالسِ عليه» (مت ٢٣: ١٦–٢٢).

استناداً إلى ما سمعه من فم الرب مباشرة يوصي الرسول يعقوب أن لا يحلف أحد لا بالسماء ولا بالأرض. لقد سمع من الرب هذا القول: «أمَّا أنا فأقول لكم لا تحلِفوا البتة، لا بالسماءِ لأنَّها كرسيُّ اللهِ ولا بالأرض لأنَّها موطِئُ قدَميهِ. ولا بأورشليمَ لأنَّها مدينةُ الملِكِ العظيم. ولا تحلِفْ برأسِكَ لأنَّك لا تقدِرُ أن تجعَلَ شعرةً واحِدَةً بيضاءَ أو سوداءَ. بل ليكن كلامكم نعم

وعن الأزهار الربيعية التي تذبل في أيام قليلة. حقاً، ما هو الأكثر تفاهةً وبطلاناً من المجد البشري؟ ما هي ثمرته؟ ما هي منفعته؟ وإلى أيّ نتيجةٍ مفيدةٍ ينتهي؟ يا ليت كان هذا هو شرّه فقط! لأنه ليس فقط لا يؤمّن أيّ ربح، بل هو يسبّب خسارةً كبيرةً أيضاً.

كلّ مَن يخضع للكبرياء، هذه السيدة القاسية والبشعة، يعاني دائماً ويحزن. نعم، إنه حقاً امرأة قاسية مع الخاضعين له، فبقدر ما يتملّقونها، تشمخ هي بقامتها وتعذّبهم. وعلى العكس، فإنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً للناس الذين يرفضونها ويحتقرونها.

إنّ الكبرياء، باختصار، هو أسوأ من كلّ وحش وكلّ مستبدّ، لأنّ الوحوش والمستبدّين، باللطف وحسن المعاملة، يتروّضون أحياناً كثيرة، بينما كلّما سايرنا الكبرياء توحّش أكثر؛ وإن وُجد مَن ينفّذ كلّ رغباتها، فهي لا تتردّد بدفعه حتى إلى الإثم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

نعلا لا. وما زادَ على ذلك فهو من الشرير» (مت ٥: ٣٤–٣٧). إذاً، بما ان الخليقة من أعلى السماء إلى أسفل الأرض، ومن عرش الله إلى الشعرة البيضاء والسوداء، كلّها تحكمها العناية الإلهية، لذلك فإن مَنْ يقسم بالسماء أو الأرض أو أورشليم أو بشعر رأسه فهو يرتبط بالقَسَم أمام الله، أي انه يُشهد الله وهذا لا يجوز لأنه لا أحد يستطيع أن يقسم بالله إلاّ الله وحده، وذلك لأن الخطر قائم بأن لا يستطيع الإنسان في كثير من الأحيان أن يوفي قَسَمه وبالتالي يكون قد استعمل اسم الرب جزافاً وعرّض اسم الرب للتجديف. لذا التحذير «لئلا تقعوا تحت دينونة»، وتحذير الوصية الثانية في الوصايا العشر: «لأن الرب لا يبرئ مَن نطق باسمه باطلاً».

القديس يوحنا الذهبي الفم يوضح ان الخطورة في القَسَم تكمن في أننا كثيراً ما نلجأ إلى القَسَم في لحظات غضبنا فنتفوه بأمور غير عقلانية وعندما نعود إلى هدوئنا ونلتزم بما أقسمنا به نكون ننجذب إلى الخطيئة قسراً، لأنه غالباً ما تكون أقسامنا في لحظات الغضب إنذاراً بالشر. كما اننا ننجر إلى القَسَم بسهولة في لحظات اللذة والشهوة، كما فعل هيرودس حين أقسَم وهو منتش من الخمر والإعجاب بابنة هيرودیا، انه لو سألت مهما طلبت فسيعطيها. وهكذا التزم بقطع رأس يوحنا المعمدان. كما يحذر أيضاً الذهبي الفم من التفوّه بالقَسَم ولو لهدف سامٍ قبل درس كافة الإحتمالات والنتائج. ومثال على ذلك ما قام به يفتاح الجلعادي (قضاة ١١) الذي أقسَم للرب أنه إذا ربح الحرب ضد بني عمون فإن أول إنسان يلاقيه «يكون للرب وأُصعِدُهُ مُحرَقَةً» (١١: ٣١). وربح يفتاح الحرب وكانت ابنته هي أولى مَن استقبله عند عودته، فما كان منه إلاّ أن «فعلَ بها نَذْرَهُ الذي نَذَرَهُ للرب» (١١: ٣٩). وهكذا صار يفتاح قاتلاً لإبنته بسبب قَسَمه.

الرسول يعقوب الذي سمع كلام الرب «ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا»، واختبر قيامة الرب من بين الأموات التي عدنا بواسطتها أبناءً لله، يقول «لتكن نعمكم نعم ولاكم لا». فالرب لا يريدنا فقط أن لا نحلف، بل وأيضاً أن يكون كلامنا صدقاً لأننا أبناء الآب السماوي. أعظم هبَّة منحنا إياها الرب يسوع انه جعلنا من جديد أبناء الله، وهذه النعمة ننالها في المعمودية، فكيف لنا بعدما وُلدنا أبناء لله أن لا يكون كلامنا نقياً صادقاً حقيقياً لا غشَّ فيه. أما الذي يتساءل «كيف سيصدقنا الناس؟» فنقول له ان هذه مشكلتهم هم وليست مشكلتك. إن لم يصدقوك فدينونتهم على رأسهم، المهم أن تكون أنت صادقاً.

المسيحي يقول الحقيقة دائماً ولا يحابي الوجوه (كما قال يعقوب في بداية رسالته)، ويتحاشى كل تحايل، ولا يستغل سلطة الله لأهداف شخصية. مَن تخلّص من سلطة أبي الكذب، الشيطان، لا يمكنه أن يكذب وإلاّ فإن الدينونة قريبة على الأبواب.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb